

حول مقالات ضياء الدين بلال.. و دورة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوداني

هل هو نقد لإسهامات الحزب الشيوعي...!
أم قراءة بروح الأصولية السلفية "المشروع الحضاري"..

تقديم..

ظل الحزب الشيوعي السوداني دوما متميزا في طرجه وفي ممارسته العملية التي حكمت وجوده على ساحة العمل السياسي السوداني، فأى استعلاء هنا حين يقول وبملى فيه "انحياز الطبقة العاملة والمسحوقين من أبناء السودان". أي استعلاء هنا حين تقول اللجنة المركزية بأن مساهمات الأعضاء وتداول الميدان هما مدخول عمل أساسي يعطر حياة الحزب. وأين نحن من أبراج البنوك و محافظ الأموال التي تستقر في بلاد "الكفر"! وأين نحن من أكلي مال السحت! ويطول التأسي على أبناء بلد وقعا في براثن من لا يرحم وأنياب أفواه شرهة لا ترعوي عن فعل أي شئ!..
أن يقوم الحزب الشيوعي السوداني بممارسة نقد ذاتي فلأن ذلك من صلب برنامجنا ولائحة عمله وهي عملية تتم بصورة دورية لأن الإطار النظري الذي يستند عليه الحزب الشيوعي لم يولد جامدا ولم يدع أحد بأنه منزل من السماء، بل هو إسهام خلاق علي مختلف أصعدة العلاقات الإنسانية وهو بدء تحليل لواقع اجتماعي و اقتصادي واستقراء لما يمكن أن ينجم عنها من تطورات، وهو هنا إطار عريض قد تنقق على ما نرجوه من نتائج وقد نحورها وفق إسقاطها على بنية مجتمعنا التي لم تكن يوما ما تزواج عروبي إسلامي أو إفريقي يدعوا لها قرون! بل تراث و تقاليد أختطها المجتمع السوداني منذ عصور سحيقة و مازال يبني عليها، لها جذور أفريقية تقول بما نحن منه عرقا و أخذنا ثقافيا كما ولها مسارب حركة عربية إسلامية تلتفتها في تطورها وبصمت عليها ملامح أضحت لنا نحن السودانيين معلما متقدرا ما بين أفريقيا وتلك الدول العربية.
من هنا فالإطار النظري الماركسي الذي يحكم قراءة الحزب الشيوعي السوداني للحركة الاجتماعية هو إطار متجدد يقبل النقد و يقبل التنزيل على بنية المجتمع السوداني في أطرها الثقافية و تفاوتاتها الروحية و العرقية سعيا لبناء علاقات اجتماعية - اقتصادية تمهر هذا الوطن و تزيل الفوارق الطبقيّة التي يكرسها البعض عملا! وحتى تقدم السودان الذي يسع جميع أبناءه بلا فوارق عرقية كانت أم روحية.

أي إرهاب..

" ولأول مرة يقدم الحزب اعترافا نبيلا بأنه أصيب بحالة من الإرهاق و التعب..ضياء"
أي إرهاب أصاب الحزب الشيوعي السوداني! إنه ما أصاب أهل السودان جميعا دونما استثناء، ولكن من أين أتى هذا الإرهاق؟ إنه نتاج نظام قمع دموي استباح كل شئ في أرض المليون ميل و كان بديهيا أن يستهدف الحزب الشيوعي لأنه محرك الجماهير ولأنه القادر على مواجهة الأنظمة الديكتاتورية أو هكذا تقول خارطة العمل السياسي و الاجتماعي السوداني منذ الاستقلال وحتى نظام الإنقاذ العدمي. أن يرهق الحزب الشيوعي السوداني فهو حق! لأنه أبن شرعي لهذا المجتمع السوداني و من يجول بناظره في أرجاء مجتمعنا ليدرك بأن ما أصاب هذا المجتمع لا يحتاج اللجنة المركزية أكثر من أن توثق له ولأجيال قادمة حتى تعرف مدى الكارثة التي حلت بهذا البلد من لدن نظام المشروع الذي دعى حضاريا!.

البحث عن الذات.. والشكوى!

"الذي يبدو واضحا في هذه النقطة الملحمة التي تتجه بمسارات النقد صوب الذات التنظيمية..ضياء"
لم يتوقف الحزب الشيوعي السوداني يوما من أن يعيد اكتشاف ذاته ولا أن يشيخ النظر عن مكوناته. إطار الحزب النظري يوجب أن يقوم الحزب "الثوري" بمراجعة ذاته وتصحيح أخطائه متى ما بدا ذلك وهو لا يعني نكوصا عن التزام فكري بل تطبيقا لنهج ماركسي ويفهم جدلي "ديالكتيكي". ولكن من أين تأتي الشكوى و الضجر!.. هل من إعياء أصاب الشيوعيين! أم من مستنقع تلطخ فيه كل أهل السودان! أن نشكو و نضجر لأننا فقدنا الماء و الدواء و الكتاب! لأننا فقدنا حرية أن نقول لا للظلم و الاضطهاد! لأننا عجزنا أن نطعم أطفالنا و أن نداوي جراحهم في حين بلادنا يجثو عليها من ينفقون أموالنا و دماء أبنائنا!

كيف لا تكون هناك شكوى و ضجر و المتسلقون ممن يجيدون إرسال اللحي صاروا لنا ساسة و مخططين و حتى صحفيين! لما لا تكون هناك شكوى و ضجر و محمد أحمد المغلوب على أمره يكذب ليله ونهاره بحثا عن لقمة خبز لأبنائه وهناك من يقرضون حسنا! ليزيدوا معاناة مجتمعنا. أصحاب اللحي لا يفهمون لما يجأر المغلوب على أمره بالشكوى و الضجر وفي عرفهم القضاء و القدر يسبق العدل و حقوق بني البشر!.

الحزب الشيوعي و التحالفات..

" الذي يمكن ملاحظته هو إن الحزب الشيوعي يبدي غير قليل من الندم على تجربته في التحالفات..ضياء"
أن يواجه الحزب الشيوعي السوداني نظام الإنقاذ الكارثي من خلال تحالف و كل القوى الوطنية و الديمقراطية السودانية، إن كان فيه من موجهاً فهو عظم البلاء و الإمتهان الذي أصاب أهل السودان من وحي مشروع الإنقاذ الذي سمي حضاريا! فالتجمع هو أداة أهل السودان في مواجهة الظلام الذي يحيط بهم و أهل الإنقاذ يفتقون و يدرون ذلك و إلا ما كان لهم أن يحدثوا التجمع. أما وجود الحزب الشيوعي السوداني في التجمع فهو تعبير عن وجوده في مجتمعه وحين يقول الحزب بأن لا يلهيه ذلك عن نضاله وسط من يمثلهم، فالتجمع لم يدعي بأن أحد من أعضاءه بديل لكيانات حزبية أو

التزامات فكرية، لكنه أي التجمع مظلة يلتقي تحتها أهل السودان الذين أصابهم هجير نيران الإنقاذ، لذا فالتجمع هو السودان حتى يعود الحق لأهله. وقبل أن نتحدث عن قيادات خارج السودان وأخرى داخله! هل تسألنا عن مسببات ذلك؟ وأي منهم سيكون في معية الإنقاذ ومشروعها؟ هل من يتلظى بهيبها في الداخل؟ أم من يقاتل على الإعانات في شتات الغربية؟ ليس مهما ما يدعوه البعض بصراع متوهم بين داخل وخارج ولكن منطق الأشياء يقول بأن الجميع يقفون في خندق واحد ضد من يمتنون كرامة أهل السودان.

الحزب والنضال..

ومن أين لهؤلاء أن يتحسبوا أحاسيس مركزية الحزب وهم لم يتركوا على الأرض طوبه وإلا تقفوها بحثنا عن كوادر الحزب! لكن في زمن الإنقاذ العدمي صار كل شيء مباح حتى استنطاق الحجارة!. نعم.. هناك ملحمة تسطر كل يوم في حياة الحزب، وإلا لما كان لهؤلاء أن يتلصصوا بحثا عما يعينهم علمهم يعثروا على شيء يكفيهم شر ما هو مبيت لهم ليس من قبل الحزب الشيوعي السوداني فقط ولكن من خلف كل فرد في هذا النسيج الاجتماعي السوداني، ولكن هيهات.. فالأيوم قادم لا محالة!.

وأي أولويات قد تراجعت! نضال الحزب الشيوعي ظل ويظل من خلال حركة المجتمع السوداني وتطور بنيانه سواء في عهود النيه والظلام أو في فترات الديمقراطية المؤدة دوما. ويظل مطلب الجماهير في الحرية والعدالة الاجتماعية جزءا من وسائل الحزب للانخراط في العملية الاجتماعية السودانية، وإن اعترتها مثالب كتقافز قوى انقلابية مثلما حدث في ليل الإنقاذ، فيتوجب على الحزب أن يتصدر الجماهير دفاعا عن حقوقها وهو ما ظل وسيظل يقوم به الحزب الشيوعي السوداني، أما نضاله وسط القوى الاجتماعية فهو دائم بديمومة المجتمع السوداني بغض النظر عن من يحكم بنيته الفوقية. وإن كان في ظل النظام الديمقراطي ما يسهل حركة القوى الديمقراطية، إلا إن أنظمة الظلام الديكتاتوري لن تغل أيدي المناضلين الشرفاء في تصديهم لقضايا شعبهم وهو ما يقوم به الحزب الشيوعي وكوادره كل يوم.

أن من يحلم بأن الحزب الشيوعي في طرحه للقضية الفكرية والتنظيمية في نقاش عام مستديم يعني تقوعا فهو واهم، بل هي محاولات لإيهام الذات قبل الآخرين، بأن الحزب الشيوعي السوداني مشغول عنهم بقضاياهم، ولكن الحزب كان وسيظل حزبا ثوريا يطور نفسه بنضاله اليومي و يتصدى لقضايا مجتمعه رائدا طليعيًا لنضالات العمال والمزارعين والفئات المسحوقة من مجتمعنا السوداني.

كيف يتوهم البعض إن الحزب الشيوعي السوداني قد ارتسمت عليه ملامح واسعة للدهشة!!"وقد ارتسمت ملامح واسعة للدهشة في التقرير حين نظر الحزب للمتغيرات الديمقراطية بضيء"

حقا فهم لا يعرفون أجدبيات منطلقات الحزب الفكرية، لا وجود لحزب شيوعي في غياب تحليل متكامل للبنية الاجتماعية السودانية وهو مدخل الحزب للحراك الجماهيري، أما تلك المتغيرات التي

أوجدتها سياسة البطش والتجويع والتشريد وحمامات الدماء، فيستوجب أن يقف عندها الحزب الشيوعي السوداني تحليلا لمسبباتها وإستقراء لإفرازاتها حتى يثري برنامجه الساعي للنهوض بالمجتمع السوداني وهذا هو منهج الحزب الثوري في التصدي لقضايا مجتمعه. فهل مطلوب منا أن ننتظر ما يوجد به الغيب حتى نجد لنا موطئ قدم في جنان العملية الاجتماعية السودانية. أما أن تعج العاصمة بحشود أبناء الأقاليم وما يقول به البعض من انتمايات لهم وولاءات فما الذي هو منتظر!!.. تطور منطقي نحو وعي الذات واكتساب المعرفة أم جرجرة المجتمع نحو الجهل والتجهيل وهل سؤل أهل المشروع الحضاري عن مردود هذا النزوح عليهم!. إن كان هناك من يحكم عقله.. إيصال المعرفة إلى أعماق التوازعات الاجتماعية أو نزوح تلك الفئات لن يخدم سوى طريق قويم نحو مزيد من المعرفة ووعي الذات وهو هدف أصيل لكل القوى الديمقراطية وعلى رأسها الحزب الشيوعي السوداني. إن من يرتعد خوفا من هذا الحراك الاجتماعي هو من يسعى إلى أن يظل الجهل والتجهيل مبداء يخدم أهداف سياسية لا علاقة لها بالتاريخ الإنساني المقروء منه والمعاش، وهنا لن تجد من مستفيد سوى جماعات الأصولية والسلفية التي تحاول أن تجرر مجتمعنا نحو حقب تاريخية تجاوزها العقل والتطور البشري.

فهل حقا بعد هذا أن يفغر الحزب الشيوعي فاه تجاه منطق تطور العلاقات الاجتماعية وهو من صلب التزامه الفكري!! إنه حقا أسلوب قلب الحقائق وهي مبدأ أصيل في مشروع الإنقاذ الحضاري الذي يحاول البعض الآن ما بعد الرابع من ديسمبر ٢٠٠٠ أن يسجل ناقدا له!! ولكن ذلك لا يمكن أن يتأتى من بوابة التشفي والإدعاء على الحزب الشيوعي السوداني لأن منطق الأشياء يقول وكما سطر بعضهم إن دورات اللجنة المركزية والميدان وقضايا سودانية ما زالت تحفر في علاقات مجتمعنا تطويرا لقدرات نضالية وسعيا لمواجهة طاغوت تسلل بليل، ولكن الحزب وكل القوى الوطنية والديمقراطية ستظل أمينة لتطلعات شعب السودان، دفاعا عن حقوقه وإرساء لقواعد علاقاته التي ارتضتها طوال مسيره الذي يمتد عمقا في التاريخ بحيث لن يدعي مشروع الإنقاذ الحضاري امتدادا أو تمثيلا له. فهل وعى ذلك أصحاب اللحي ومن يصطادون في عكر ماء الإنقاذ ممن تركوا قاربه.

في الختام

وأخيرا حصول الكاتب على ما يسميه "تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوداني من أحد قادة الحزب!!" أفلا يضع هذا الكاتب موضع مساعلة عن علاقة بالحزب وفي ظل مشروع حضاري! وبيوت أشباح جرجر إليها كل من يشك في معارضته للهيمنة السلفية، و كاتبنا يقدم تنويرا عن تقرير اللجنة المركزية وهو في منأى..عجبنا!!

الاعتراف النبيل..! أين هو النبيل في الإرهاق!! إرهاصات الانتقال للعمل في العلن! هنا تبرز معضلة الكاتب ومشروع إنقاذه، إن وجود الحزب مناضلاً حتى من خلف الجدران أصابهم و يصيبهم بالهلع ولقد فعلوا ما طالته أيديهم قتلاً وسجناً ونفياً لكوادر الحزب ولكن هاهم يمنون أنفسهم بخروج علني للحزب، لأن وسائلهم قد عجزت.
من أين أتى الكاتب بتركيز الحزب على بنى المجتمع الفوقية، فهل أدعوه عودة لبداية مقالاته ليقرأ ما كتبه "يعيد المطلع على التقرير لأزمة مضت كان فيها الحزب الشيوعي فتياً عباقراً على الفعل الخير والشرير كذلك.. وعلى القول البليغ حينما كان يقوم بتنقيف الحركة السياسية أدبياً ويدفع تياراتها لمنافسته ويضطلع بريادة العمل النقابي.." فهل هذا رقصاً على بنى المجتمع الفوقية..!

أي خطاب سياسي للحزب الشيوعي تشكل في فضاء الطبقة الوسطى!"الخطاب السياسي للحزب الشيوعي ولظروف موضوعية!! تشكل في فضاء الطبقة الوسطى.. ضياء"هل طبقتك الوسطى هي العمال و المزارعين و المسحوقين من أبناء السودان..!! وإن كان المقصود بها البرجوازية الصغيرة، فأى فجور أتى به مشروع الإنقاذ الحضاري!!! فهلاً عرفتم أبجديات الفكر الماركسي..!

كان الحزب الشيوعي السوداني أول من نبه لإشكالية السودان في تجاهل مهمثيه ولقد خاضت كل القوى السياسية المعارك ضده في طرحة لمشاكل المناطق المهمشة، فهل يأتي اليوم ، من أهل الإنقاذ من يقول بتوجس الشيوعيين من حركات المناطق المهمشة..!

أمل أن يتسع صدر المشروع الحضاري لهذه الكلمات في وقت ضاق صدرهم حتى بوجود الحزب الشيوعي السوداني وبقية القوى السياسية في المهجر الداخلي والخارجي.

عوض محمد أحمد
١ يوليو ٢٠٠٢